« الذئاب »

اربع قصص كردية لحسين عارف

حسب الله يحي

دأبت الامانة العامة لادارة الثقافة والشباب لمنقطة كردستان ومجلات : كاروان، شمس كردستان، الحكم الذاتي، الاديب الكردي، هاوكاري، وجريدة العراق .. على التعريف بالادب الكردي وترجمة نماذج من عطاءاته الى اللغة العربية .. وهذا التوجه يشكل اهمية كبيرة في شد اواصر الاخوة العربية ـ الكردية، وتقديم ادب عراقي لكافة القوميات المتآلفة .

وقد اصدرت مجلة «كاروان» ضمن منشوراتها، مجموعة قصصية للقاص الكردي حسين عارف بعنوان «الذئاب» صدرت حديثاً ـ ترجمها الى العربية : عبدالستار كاظم، وقدم لها وراجعها : كمال غمبار .

تضم المجموعة اربع قصص على التوالي : سفرة سحرية، المراسل، الذئاب، صولة القلب. والقصص متباينة في اسلوب كتابتها وتنوع مضامينها .. على ان قصة «الذئاب» هي الاكثر اهمية، والادق تعبيراً، والاغنى موضوعاً، لا لأنها تحمل عنوان المجموعة وانما لانها قصة متميزة عن القصص الاخرى في طريقة كتابتها وسخونة الاهداف المتوخاة منها. نحن امام (بارام) وزوجته (ئايش) واطفالهما. يعيشان في قرية .. الثلج خارج المسكن والمدفأة الخشبية في الداخل، (بارام) يزيح الثلج مراراً، و (ئايش) توقد النار.. كل شيىء آمن حتى تهاجم الذئاب هذا الامان، وتزداد شراستها بعد قتل بعضها برصاص (بارام) ..

ويقف احدهما خلف الباب والثاني خلف النافذة اتقاء دخول الذئاب اليهما . كانت ليلة قاسية، جعلنا الكاتب نحس من خلال تصويره لها بالمعاناة الكاملة .. الخوف والبرد والعطف على الابناء .. والشعور المدمر بلمسات الذئاب خلف الباب والنافذة بينما كانت الدقائق تمر طويلة وقاسية حتى بانت خيوط الصباح .. وذهب قطيع الذئاب . لقد جعلنا حسين عارف في موقع

شائك محاط بالخوف، والسعي لمساعدة هذه الاسرة الآمنة وانقاذها من الذئاب التي ظل القاص يسعى لاتخاذها رمزاً للقوى العدوانية، الغريبة .. فـ (ئايش) تقول : «يحتمل ان يكن عفاريت وغيلان تقمصن جلود ذئاب» في حين يطرح (بارام) سؤاله : «الا تفعل الذئاب التي تمشي على قدمين كذلك؟» ثم يصل اليقين :

«صدقت (ئايش). ليست ذئاباً .. هذه ليست ذئاباً» .

الا ان حسين عارف لم يشبع هذا الرمز، ولم يبعده عن الاتجاه الواقعي الذي احاط قصته به .. ذلك انه قدم (الذئاب) حسب طبيعتها وطريقة عيشها، مما جعلنا نصل الى قناعة اكيدة انها ذئاب حقيقية، اكثر من كونها ذئاب رمزية لقوى عدوانية .

كما انه لم يستطع اغناء المواقف الحرجة في قصته مثل : وقوف (ئايش) خلف الباب (ص١٠٤) فيما تكون الذئاب تنشب مخالبها فيه .. وهو مشهد مرير يحتاج الى نقل الاحساس به نقلاً سايكولوجياً ... كذلك المشهد الذي طلب فيه السجائر وهي لحظة مريرة تهدد باندفاع الذئاب (ص١٠٦) كما انها لحظة تنفس سيجارة تعادل الحياة ! ولم يجهد القاص نفسه في اغنائها . وتعميق دلالاتها بدقة .. مع انها كانت تحتاج الى وقفة لنقل مشاعر واحساس الشخصيات بها .

وعندما ننتقل الى قصة «صولة القلب» التي يشير القاص الى انه قد انجز كتابتها قبل ستة وعشرين عاماً. وها هو يقدمها الآن ..

ويبدو انها قصة منحوسة، فقد لاحقها اشكال طباعي حيث غابت (ص١٢٢) وتكررت بدلها (ص١٢٣) ولولا عون القاص بنفسه بتزويد كاتب هذه السطور بأصل (ص١٢٢) لتعذرت قراءة القصة بدقة .

ومع ان السطور الثمانية الاولى للقصة تبدو زائدة ولا اهمية لها بتسلسل مسار قصة «صولة القلب» الا ان التقديم التالي للقصة كون احدى الفتيات قصدته للتدخل في زواجها من عجوز .. وحين فشل في مسعاه، احرقت الفتاة نفسها ..

ومن خلال هذا الحدث الواقعي المثير، ينطلق القاص ليقدم حدثاً لاحقاً يتحدث عن فتاة صغيرة زوجت من رجل عجوز بعد

ان توفي والدها، وكانت امها على علاقة بالرجل حتى ماتت، واوصت بزواجها منه ليرعاها ... وتقع الفتاة في حب الفتى الذي يحدثنا عن التجربة وخجله من الفتاة الى ان تلحق به وتبادلها غراماً محموماً، وتكتشف من جرائه، وتضطر الى ترك المحلة مع زوجها .. الى مكان مجهول.

و يتركنا القاص ونحن في حالة شفقة نحو «گولچين خان» كونها قد وقعت تحت ضغط اسري جعلها تستسلم لزواج غير متكافىء.. وان هذا الزواج كان نتيجة سلبية لظروف عاطفية لارادة لاسلطة للفتاة عليها، وبسبب ظروف اقتصادية لم يكن باستطاعة الفتاة الخروج من مأزقها، ومن هنا يحدد القاص الاسباب والنتائج، في محاولة للبحث عن سبل موضوعية جديدة وصولاً الى الحلول.

ومع ان اجواء هذه القصة، من الوقائع التي يمكن ان نتبينها في حياة المراهقين، وان القصة العراقية قد تناولت مثل هذا الموضوع مراراً، الا انه يبقى من المواضيع الاثيرة والتي يمكن تناولها من قبل اكثر من قاص، كل وفق اسلوبه ومعالجته .. وفي قصة «المراسل» نجد القاص يعني بشكل اساس على تقديم اسلوب مكثف وينحو منحى الجدة من الاساليب الحديثة في كتابة القصة، معتمداً على الايجاز والتكثيف ليعبر عن شخصية انيطت بها مهمة المراسل ويعكس من خلال تلك المهمة المعاناة الداخلية والصراع العنيف مع الطبيعة، ليؤكد وجود البطل الايجابي الذي يقف بصلابة في مواجهة اقسى الظروف.. ويحقق ارادته الباسلة التي لاتلين ولا تتراجع رغم كل الاحباطات والمصاعب التي احيطت به..

و «المراسل» كما يبدو من احدث القصص التي كتبها حسين عارف، فهي نموذج للكتابة القصصية التي تقتصد في الجملة، وتقديم احداث باقل قدر ممكن من الكلمات.. وهي قصة تحتاج الى تأمل وصبر وانتباه ودقة في القراءة.. ليصل من خلال القارىء الى مضمون هادف فعال في مسيرة الانسان وتحقيق ارادته.

اما قصة «سفرة سحرية» اول قصة في هذه المجموعة - فنجدها معنية بالمكان، ذلك انه اصل الحياة، ومنطلق ابداعها.. ان المكان متجدد في هذه القصة على نحو اساس ولا بديل عن الواقع الاجتماعي والبيئة المعاشة.. وحصر المنزل والحي والمدينة يدلل على ان القاص يهمه الوطن الصغير وصولاً الى الوطن الكبير.

والماضي هنا، ماضي الناس في الفتهم ومحبتهم وتفاعلهم.. والقاص يحاور نفسه ليجعل الاشياء قريبة منه، منطلقة من خلاله، منبعثة من شغاف قلبه، موشومة في ذهنه.. والوعي بالماضي هنا، وعي الناس وامنهم، وعي بالفرد المتفاعل مع الجماعة ومن خلالهم يرى الحياة في عمقها وجمالها.

يقول الاستاذ كمال غمبار في تقديمه لهذه المجموعة القصصية، بان القاص حسين عارف قد اصدر مجموعته الاولى «في سوح الكفاح» عام ١٩٥٩ والثانية «حزمة آلام غضبى» عام ١٩٧١ والثالثة «زاد سفر شاق» عام ١٩٧٥، كما اصدر مجموعته «الذئاب» عام ١٩٨٣. وجميعها كتبت باللغة الكردية، ولم تترجم الى اللغة العربية الا المجموعة الاخيرة.. لذلك لايمكن التعرف على مدى التطور الذي قطعه القاص في مسيرته الابداعية، مقارنة بمجموعاته السابقة، ولا يستطيع قارىء الترجمة العربية ان يجزم بان ماأشار اليه الاستاذ عبد الستار كاظم في كلمته حول المجموعة بان «مسرح الاحداث في هذه القصص الاربع في الغالب هو محافظة السليمانية» ذلك ان القاص لم يحدد زمان ومكان احداث قصصه، ولكنه معني بالبيئة الكردية، عناية دقيقة، ويمكن ان نحدد معالمه من بين سائر القصص العراقية عبر تجسيده لبيئة يعرفها، ولوضع اجتماعي مخلص في استيعاب ابعاده.

ان القاص حسين عارف، قدم مجموعة جيدة في مضامينها الانسانية ورؤيتها الخلاقة، واسلوبها عميق متجدد مما يدل على ان كاتبها حريص تماماً على تطوير ادواته وتقنياته في كتابة قصة كردية متطورة بشكل مستمر.